معطيات جديدة على أرض فلسطين

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ليس معروفا ما الذي تريده حركة "حماس". المعروف فقط أن خياراتها لن تأخذ القضيّة الفلسطينية إلى أيّ مكان باستثناء المزيد من الخراب. هذا يعود أصلا إلى أن موازين القوى في المنطقة والعالم لا تسمح بانتصار لـ"حماس" على إسرائيل. كلّ ما تسمح به موازين القوى هذه هو تحويل قطاع غزّة إلى سجن كبير في الهواء الطلق لمليوني فلسطيني.

سيتوجب على الفلسطينيين إنتاج قيادة جديدة مختلفة، كما سيكون عليهم انتظار وقت طويل قبل التوصّل إلى تسوية معقولة ومقبولة تأخذ في الاعتبار أنّ لا مفرّ من قيام دولة فلسطينية مستقلة، عاصمتها القدس الشرقية، لا مكان فيها للشعارات الفضفاضة من نوع "فلسطين وقف إسلامي". هذه شعارات استخدمتها إسرائيل أفضل استخدام في مشروعها التوسّعي الذي اعتمد منذ سنوات طويلة على "حماس" وسلوكها.

وضع الشعب الفلسطيني قضيّته في الواجهة مرّة أخرى. استطاع ذلك بفضل انتفاضة أهل القدس قبل أيّ شيء آخر. لم تكن صواريخ "حماس" من غزّة سوى عملية خطف لقضية أعاد أهل القدس إليها الحياة. انتفض أهل القدس في مواجهة محاولة إسرائيلية للاستيلاء على منازل في حي الشيخ جراح. وقف العالم كله متعاطفا مع الفلسطينيين الذين باتوا يعرفون درجة الإفلاس السياسي والمعنوي التي بلغتها السلطة الوطنيّة برئاسة محمود عباس (أبوmازن) الذي لم يعد لديه من همّ سوى البقاء رئيسا مدى الحياة...

هذه ليست المرّة الأولى التي تمارس فيها "حماس" عمليّة خطف تصبّ في ضرب القضيّة الفلسطينية في الصميم. فقد سبق أن فعلت ذلك منذ تأسيسها وذلك بغرض واضح يتمثّل في إفشال المشروع الوطني الفلسطيني الذي قام على خيار الدولتين والذي أخذ بعدا جديدا بعد اتفاق أوسلو بحسناته وسيئاته.

هذه ليست المرة الأولى التي تضرب فيها «حماس» القضية الفلسطينية في الصميم، فقد سبق أن فعلت ذلك منذ تأسيسها وذلك بغرض واضح يتمثل في إفشال المشروع الوطني الفلسطيني الذي قام على خيار الدولتين

لا حاجة إلى الذهاب بعيدا للتأكّد من الدور الذي لعبته "حماس" في أخذ المجتمع الإسرائيلي إلى اليمين عن طريق العمليّات الانتحارية التي لجأت إليها بعد أوسلو كي تقول للإسرائيليين إن هناك بين الفلسطينيين من يدعم بيغال عمير قاتل إسحاق رابين في تشرين الثاني – نوفمبر 1995 وقبل ذلك المتطرّف اليهودي باروخ غولدشتاين الذي نفّذ مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل في فبراير – شباط من العام 1994.

بعد نجاحها في القضاء على أيّ أمل في تحقيق تقدّم بعد توقيع اتفاق أوسلو، وضعت "حماس" يدها على غزّة في حزيران – يونيو 2007. فوّتت قبل ذلك، إحدى أهمّ الفرص التي برزت أمام الفلسطينيين كي يعيدوا ترتيب وضعهم الداخلي وتأكيد أنّهم يستحقون دولة مستقلّة. ففي آب – أغسطس 2005، انسحبت إسرائيل من قطاع غزّة كلّه إلى الحدود الدولية المتعارف عليها. لم تأخذ "حماس" في الاعتبار الهدف الإسرائيلي من الانسحاب من غزّة، وهو هدف لم يخفه دوف فايسغلاس مدير مكتب شارون الذي قال وقتذاك في حديث إلى صحيفة "هآرتس" كلاما واضحا كلّ الوضوح. كشف فايسغلاس، في الحديث الذي يشرح فيه ظروف الانسحاب من غزّة، أن الانسحاب من القطاع يسمح لإسرائيل بإحكام قبضتها على الضفة الغربية ومتابعة الاستيطان فيها، فضلا عن محاصرة القدس الشرقية المحتلة وعزلها عن محيطها الفلسطيني.

لبّت "حماس" كل المطالب الإسرائيلية. لم تكتف، مع بعض جهابذة السلطة الوطنية الذين سكت عنهم "أبومازن"، في نهب ما كان في المستوطنات الإسرائيلية التي انسحبت منها إسرائيل. بدل الاستفادة من أشياء كثيرة كانت في تلك المستوطنات، مثل نظام الريّ الزراعي المتطوّر، ذهبت "حماس" إلى أبعد من ذلك. راحت الحركة تطلق الصواريخ وتتحدّث عن "تحرير فلسطين من البحر إلى النهر". استفادت "حماس" إلى أبعد حدود من غياب الصفات القيادية لدى "أبومازن". نشرت ثقافة فوضى السلاح والتهريب في غزّة تمهيدا لانقلابها الكبير على "فتح" بكلّ رموزها الحيّة وتلك التي غيّبها الموت، بما في ذلك ياسر عرفات وخليل الوزير (أبوجهاد).

خاضت "حماس" سلسلة من الحروب مع إسرائيل وصار قطاع غزّة تحت الحصار فيما العالم يتفرّج. لا يناسب إسرائيل أحد أكثر من "حماس" ولا يناسب "حماس" أحد أكثر من إسرائيل.

هذا كان في الماضي. هناك الآن معطيات جديدة على الأرض في فلسطين. بين هذه المعطيات العامل الإيراني ودفع "الجمهورية الإسلامية" في اتجاه إطلاق الصواريخ من غزّة. هناك أيضا عامل ترهّل السلطة الوطنية وظهورها في مظهر العاجز عن أي تأثير في الأحداث. في النهاية أين قدرة "أبومازن" على التأثير في قرار "حماس"؟ لا وجود لأي قدرة من أيّ نوع في هذا المجال. هناك حسابات إيرانية لا تستطيع "حماس" سوى التزامها.

قد يكون المعطى الأهمّ ما الذي ستفعله إسرائيل وإلى أي حدّ ستذهب في حربها على "حماس" بعد إدراكها متأخّرة أن السحر انقلب على الساحر؟ هذا السؤال يطرح نفسه بحدّة بعدما وصلت صواريخ "حماس" إلى تل أبيب وحملت إسرائيل على إغلاق مطار بن غوريون في اللد.

لا شكّ أن المرحلة المقبلة ستكون حافلة بالتطورات، خصوصا أنّ على إسرائيل استرداد ما يعتبر أهمّ ما فقدته، أي القدرة على الردع. هذا يعني، في طبيعة الحال، أن غزة ستدفع ثمنا كبيرا بسبب الصواريخ. ستدفع "حماس" ثمنا كبيرا بسبب حاجة اليمين الإسرائيلي، الذي التف مجدّدا حول بنيامين نتنياهو، إلى إظهار أن الوحشية تأتي بثمارها وأن لا مانع من ممارسة إرهاب الدولة.

لا يدرك اليمين الإسرائيلي أن مثل هذه السياسة التي يتبعها والتي أوصلت إلى صدامات مع فلسطينيي الداخل، في اللد وحيفا وعكا وأماكن أخرى، لا يمكن أن تنتصر مهما فعلت "حماس" من أجل تسهيل مهمته. لن تنتصر مثل هذه السياسة مهما فعلت "حماس" من أجل إنقاذ المستقبل السياسي لـ"بيبي" نتنياهو الذي يرفض الاعتراف بوجود شعب فلسطيني.

ما يدعو إلى التفاؤل، وإن بحذر في المستقبل الطويل، أن الحلف غير المقدس بين اليمين الإسرائيلي و"حماس" لا يمكن أن يستمرّ إلى ما لا نهاية. سيتوجب على إسرائيل إدخال تعديل جذري على سياستها. لا يعود ذلك إلى اكتشافها أن صواريخ "حماس" أكثر دقّة مما تعتقد فحسب، بل اكتشفت أيضا أن القدس الشرقية مدينة فلسطينية وعربية مهما فعلت من أجل تهويدها وعزلها وذلك بغض النظر عن الدعم الأميركي لهذا التصرّف الأحمق!

ماذا عن بقية الدم العربي المسفوك؟

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

عندما يقتل العربي أخاه العربي أو ابن بلده في العراق أو سوريا أو ليبيا أو اليمن نرى الأمر عاديا، وننقسم إلى مساند للقاتل أو مساند للقتيل، ولكن ضمن دائرة جدل عقيم سرعان ما ينتهي مع قراءة التقرير الإخباري أو مشاهدته.

فقط تتحرّك مشاعر العرب عندما يتعلق الأمر بفلسطين نظرا للقداسة التي أحاطوا بها قضيتها، ولأنهم يحاولون دائما أن يجعلوا منها الخيط الرابط بينهم، فهم يختلفون ويتصارعون ويتقاتلون ويمارسون في ما بينهم كل أشكال التكفير والتخوين والتبخيس والاغتيال المعنوي، ويتسابقون نحو اللوبيات اليهودية في العالم للاستقواء بها ضد بعضهم البعض، ولا يرون مانعا من المتاجرة بكل شيء في سبيل البقاء في السلطة أو الوصول إليها، وقد يصلون بدولهم إلى الحروب الأهلية والفقر والعوز والجوع والمرض، ومع أول ضربة إسرائيلية على قطاع غزة، تراهم يقفون معا رغم أن قلوبهم شتى، ليعلنوا الدعم والمساندة لفلسطين، حتى أنهم قد يتحولون إلى فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين، في استمرار لنفس التظاهرة التي تشكلت قبل عقود طويلة، وهي الاستغلال السياسي الفج للاندفاع العاطفي الشعبي المبني على أسس صراع يكسوه طرفاه بغطاء ديني مقدّس.

لا أحد يشك في عدالة القضية الفلسطينية، ولكن أسوأ ما أصاب هذه القضية منذ نشأتها أنها أكلت الصادقين في الدفاع عنها، ورفعت من شأن المتاجرين بها، وتحولت إلى قبعة الساحر لدى الأنظمة المأزومة والمستبدة تستفيد منها في تخدير الجماهير باسم النضال والمقاومة، واشتغلت عليها كل الأيديولوجيات والتيارات الفكرية سواء عن اتفاق مع مبادئها أو عن نفاق للجماهير، إلى أن ورثتها قوى الإسلام السياسي الشيعية والسنّية، وجعلت منها الميليشيات المسلحة شعارها في معركة التمرّد ضد مفهوم الدولة وسلطة النظام في المنطقة ككل، وأداة لتبرير عنفها ضد الشعوب والمجتمعات.

وفي ذات الإطار تحولت غزة إلى دولة إخوانية قبل أن تكون جزءا من فلسطين، وأصبحت حماس آلية تقسيم لا توحيد، وسلطة مؤبدة تتحرك ضمن محور جدالي، ترتبط بعلاقات توأمة عقائدية مع كل تيار ميليشياوي عنيف، تتحالف مع المتمردين في سوريا واليمن وتتآمر على مصر وليبيا وتوزع الولاءات بين تركيا وإيران، وفيما يعيش قادتها السياسيون مرفهين بين الدوحة وإسطنبول، يدفع رعاياها الثمن داخل القطاع المكتظ بالسكان والأحزان.

يصفّق العرب لكل صاروخ تطلقه حماس ضد إسرائيل، وهم يعلمون أن الإسرائيليين سيردون عليه سريعا، ثم يدخلون نوبة الصراخ والعويل على أرواح الضحايا الأبرياء، ويخرجون في مسيرات الغضب، ويتسابقون على إبداء عبارات التضامن، وتنخرط الحكومات في حمّى الشعارات الشعبية، وتجد الأحزاب البائسة فرصة لنفض الغبار عنها بإصدار البيانات الإنشائية التي لم تتغير صيغتها منذ 70 عاما، وتدخل وسائل الإعلام في دوامة التحريض على المزيد من سفك الدماء، وكالعادة تستفيد إسرائيل من اللحظة بأن تدفع بالمقاومة إلى الكشف عن إمكانياتها ومقدراتها لتجد الفرصة إلى تدميرها كما حدث في مناسبات سابقة، على أن يتكرر المشهد لاحقا.

خلال الأيام القليلة الماضية، نسي العرب كل مصائبهم واتجهوا للهتاف من أجل فلسطين، لا أحد ينكر عليهم ذلك، ولكن ماذا لو أنهم نظروا من حولهم إلى واقعهم المتأزم الذي صنعوه بأنفسهم، ولم يكن لإسرائيل يد مباشرة فيه؟ ماذا لو عددوا ضحايا حروبهم ومغامراتهم ومؤامراتهم في أقطارهم المدمرة؟

لا أحد يشك في عدالة القضية الفلسطينية، ولكن أسوأ ما أصاب هذه القضية أنها أكلت الصادقين في الدفاع عنها ورفعت من شأن المتاجرين بها وتحولت إلى قبعة الساحر لدى الأنظمة المستبدة

في العراق، قارب عدد الضحايا منذ العام 2003، تاريخ الغزو الأميركي الذي هلّل له الكثير من العرب، 700 ألف قتيل، ومليون و357 ألف معوق، 43 في المئة منهم من النساء، وأكثر من 100 ألف مفقود، وما بين 4 و5 ملايين مهجر في الخارج، ولا يزال هناك حوالي مليوني نازح في الداخل، وفي مارس الماضي بشّرت وزارة التخطيط بانخفاض معدلات الفقر في البلاد إلى 25 في المئة من السكان، حيث أن "عدد الفقراء أقل من 10 ملايين شخص" في العراق الذي يحتل المركز التاسع من بين أغنى دول العالم بما لديه من ثروات طبيعية.

ومع ذلك، فلا أحد يشقى بآلام العراقيين، ولا أحد يتذكر الملايين من المهجرين والنازحين والمقتلعين من جذورهم المنتشرين في القارات الخمس، ولم يخرج العرب في مسيرات للتنديد بسبي الإيزيديين وتهجير المسيحيين وتدمير المدن على رؤوس ساكنيها بدوافع مذهبية وطائفية واغتيال الناشطين.

رأينا العراقي يقتل العراقي، والإيراني يقتل العراقي، والتركي يقتل العراقي، والأميركي يقتل العراقي، وقطعان الدواعش شذاذ الآفاق يقتلون العراقيين ويدمرون معالم الحضارة، ولكن لا حياة لمن تنادي، والصمت يخيّم على الضمير العربي الذي تتنازعه الولاءات المختلفة للمذهب أو الطائفة أو المحور أو المصلحة.

في سوريا، شهدت العشرية الماضية سقوط ما لا يقل عن 650 ألف قتيل، وتهجير 5.6 مليون شخص على الأقل، فضلا عن نزوح داخلي لـ6.5 مليون مواطن، وانعدام الأمن الغذائي وحاجة 11.7 مليون شخص إلى نوع من أنواع المساعدة الإنسانية، في وقت يعيش 2.4 مليون طفل خارج المدارس داخل البلاد، وبلغ إجمالي الخسائر الاقتصادية أكثر من 540 مليار دولار أميركي، كما تضرر 40 في المئة من البنية التحتية ما تسبب في خسارة حوالي 65 مليارا، وبلغ معدل الفقر 86 في المئة بين السوريين البالغ عددهم حوالي 22 مليونا.

تابعنا مقتل السوري على يد السوري، وعلى يد الأميركي والروسي، وعلى يد التركي والإيراني، وعلى يد التونسي والليبي واللبناني والفلسطيني والأفغاني والباكستاني والشيشاني والإسرائيلي، ومع ذلك، لم نر في عواصم العرب من خرج للتنديد بالجرائم التي استهدفت سوريا وشعبها، ولا بالاحتلال التركي لشمال البلاد، ولا بالصراع الأميركي – الروسي على النفوذ، وإنما تستعيد الذاكرة بين الحين والآخر، كيف أن عشرات الآلاف من الشباب العربي تم الدفع بهم إلى المحرقة السورية، وكيف أن أعدادا من الفلسطينيين دخلت غمار الحرب لتكون جزءا من المواجهة، وكيف أن المساجد التي تدعو اليوم إلى نصرة القدس وفلسطين بالدعاء، هي التي كانت تدعو إلى التطوع للقتال في سوريا.

في اليمن تشير التقديرات إلى سقوط ما لا يقل عن 100 ألف قتيل نتيجة الحرب الأهلية التي انطلقت مع انقلاب الحوثيين على الحكم القائم في صيف 2014، واستمرارهم في العمل على إحياء نظام الإمامة الزيدية بمواصفات ولاية الفقيه الإيرانية. والحوثي مثله مثل كل الميليشيات الدينية الشيعية والسنية، يرفع شعارات الدفاع عن فلسطين، وينادي بالثأر لأي فلسطيني يسقط برصاص إسرائيلي، ويهلّل ويكبّر عندما يسقط المئات أو الآلاف من أبناء جلدته، ويمارس كل أشكال التعذيب على من يختلف معه في الرأي أو العقيدة.

علينا ألا ننسى ما قامت به الميليشيات الشيعية في العراق من التنكيل بالعرب السنّة، وما قام به إرهابيو داعش والقاعدة ضد كل الطوائف، وما مارسته الميليشيات في ليبيا منذ العام 2011 من قمع وإرهاب ضد أنصار النظام السابق وأبناء القبائل وداعمي الجيش، وما نفذته جماعات الإسلام السياسي المصرية بمختلف تشكيلاتها من جرائم ضد الدولة والمجتمع.

على كل من يبكي حال الفلسطينيين اليوم أن يجيب عن سؤال بسيط: هل لك دور في إيلام أحد من أبناء بلدك أو أمتك؟ وإذا كانت عقيدتك على نهج حماس: كيف تنظر لشركائك في الوطن ممن يختلفون معك في العقيدة؟ وهل أنت مستعد لإدانة من تشترك معهم في تلك العقيدة إذا أجرموا في حق بشر آخرين بالضبط كما تدين جرائم إسرائيل في حق الفلسطينيين؟

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk